شيخ المعرة والشيخ المدرا

موضوع كلمتي ايها السادة لا يتعلق بأبي العلاء نفسه . وإنما يتعلق بوصف كتاب مخطوط دمشقي له علاقة بآثاره . وتفسير أشعاره .

وهو موضوع على قلة شأنه بالنسبة إلى موضوعات الافاضل الذين تكلموا في هذا المهرجان الالفي — فيه جدّة تسوّغه . ونسبة دمشقية تروّجه . وشيء من مفاجأة يشفع به .

على أن موائد العلم كموائد الطعام . لا تستطاب ما لم تتعدد ألوانها . وتتباين طعومها . ويجد كل من الآكلين ما يلذ له منها .

وإن كان شاعر بني عبس شكا شعراء زمانه الذين لم يغادروا له متردّماً برقّعه فان المتكلمين من خطباء وشعراء في هذا المهرجان تركوا لي — من فضلهم وعن غير اختيار منهم — متردماً رنقته . وشتاتاً لممته . وخبراً من أخبار أبي العلاء . جئتكم به أمشي على استحياء .

***

إذا وازنا بين ما تركه لنا أبو العلاء من ثروة في أدبنا العربي وبين ما تركه غيره من أدبائنا الاقدمين وجدنا بطل مهرجاننا قد تقدمهم . وأبرّ عليهم . وكان له السبق خاصة في ثلاث خصال :

(١) أخيلته المبتكرة في المعاني .

(٢) أسلوبه القصصي[1] في ايراد أبحاثه اللغوية والادبية .

---

(١) هنا موضع التساؤل أو التعجب من أبي العلاء في وضعه طائفة من مصنفاته في شكل حوار أو حوار خيالي بين عدة أشخاص أو بين الطير والحيوان والملائكة أحياناً : فمن تصفح اسماء الكتب التي صنفها علماء عاشوا في زمن أبي العلاء وقبل زمنه وبعد زمنه لم يجد فيها ما يجده في مصنفاته هو من هذا الأسلوب الخيالي : فبين مصنفاته [أدب الصفورين] [خطب الخيل] [رسالة الضبين] [رسالة على لسان ملك الموت] [سجع الحمائم] [الصاهل والشاحج] [كتاب الغائب] قالوا انه على مثال كتاب كليلة ودمنة [رسالة الغفران] [رسالة الملائكة] —

(٣) نقده الجريء للنُظُم الاجتماعية الفاشية في زمانه .

على أن آثار أبي العلاء ليست كلها سواء في حسن السياقة . ولا في قرب التناول . ولا في الفائدة والامتاع : فسقط الزند شعر ولا كاللزوميات . والفصول والغايات نثر ولا كرسالة الغفران . حتى أن أبا العلاء نفسه كان يانف من نسبة أشعار (سقط الزند) إليه . أو أن تقرا عليه . أو أن يتمثل بها لديه . وكان يسمي سقط الزند (ديوان الصبي) بينا كان يسمي شرحه على اللزوميات (راحة اللزوم) .

ومن بين هاتين التسميتين يمكننا أن نستخرج اعتراف أبي العلاء نفسه ببداعة لزومياته . وتخلّف ما عداها .

— وهي على شكل رسالة الغفران غير أن رسالة الغفران أوسع منها خيالاً . وأمتع امتانا . وله كتاب باسم [نظام السور] وهذه التسمية تشعر بأن سور القرآن تتشاكى وتتظلم من بعض الشيء . كل هذه المصنفات مما وضعه أبو العلاء وهي تدل على أن له ميلاً خاصاً أو ذوقاً خاصاً في فن القصة لم نعهده في غيره من عباقرة المؤلفين الذين عاشوا في زمنه ومثل بيئته فمن ورث هذا الميل يا ترى ؟ وكيف تسرب الى نفسه ؟

نعم ان شروط فن القصة في آثاره الخيالية هذه لم تتوفر بتمامها فيها لكن نواتها قد وجدت فيها مستوحاة من طبع أبي العلاء وغريزته العبقرية .

يخطر لي أن هذا الميل في أبي العلاء ان لم يكن تسرب الى طبعه من القرآن الكريم فقد تسرّب اليه من الفرس فقد كان له « كما يظهر من ترجمته ومجموع أخباره » زوار وخطاء وتلاميذ منهم : أشهرهم الخطيب التبريزي وكان تلميذاً له ويظهر أن المعرة كانت إلى عهد قريب منزلاً للحجاج والزوار الايرانيين يقصدونها لموقعها من طريقهم ولأثر في جامعها منسوب الى سيدنا الحسين .

ومن أشهر من زار المعرة في زمن أبي العلاء من الفرس « ناصر خسرو » الرحالة الفارسي العظيم وقد وصفها ووصف أبا العلاء في رحلته التي سماها [سفرنامه] فلا جرم أن يكون أبو العلاء — وهو الذكي الألمعي الثقف اللقف — عرف من هؤلاء الطرّاء الفارسيين شيئاً ولو قليلاً من أدب الفرس وتخيلات شعرائهم وأسلوبهم القصصي في مصنفاتهم . وما نفس لا نفس [كليلة ودمنة] و [شهنامة الفردوس] . ومن كان في ذكاء أبي العلاء لا يعوزه لأجل التأثر والمحاكاة أكثر من هذا القليل حتى تفيض قريحته بالكثير مما كان على نمطه ومضروباً على غراره . ويمكن أن تعدّ مقامات البديع الهمذاني من جملة الآثار الخيالية التي تأثر بمضامينها أبو العلاء : فهي — وان كانت عربية في مولدها — فارسية في محتدها . إذ أن البديع فارسي العرق : كان يقيم بهرات ومات فيها . وكان معاصراً لأبي العلاء : جمعهما رييع الشباب وعاش المعري بعده أكثر من نصف قرن .

إذن يصح القول بأن أبا العلاء ليس سوى لزومياته : فهي التي لم يَفرِ فيها فَرِيَّه أحد . ولم يُلهم في عُمقِيِّ تفكيرها إلهامه أحد . بل هي التي سجلت له حق الخلود من جهة . وكشفت لنا عن أسرار مجتمع زمانه من جهة أخرى . وقد نبهنا هو نفسه إلى صنيعه هذا مذ قال :

(ومن تأمل أقوالي رأى جملا يظل فيهن سرُّ الناس مشروحا)

وهل يريد بسر الناس إلا ما نريده بقولنا : (أسرار المجتمع) (أسرار الوجود) (نواميس الاجتماع) (طبائع العمران) .

***

ومن مواضع العجب أن أحداً من فحول العلماء لم يتصدَّ للزوميات فيشرحها كلها (١) شرحاً يستوعب فيه جميع ما دفن فيها من كنوز . واستتر تحت ذيلها من رموز .

ولو تصدى متصدٍ إلى شرحها على النحو الذي وصفنا لمنحنا من واسع علمه (دائرة معارف) تحيط بثقافتنا العربية الاسلامية من جميع جهاتها . ولكن هذه الاحاطة تحتاج إلى عيلم (انسكلوبيدي) عامٍ في مناحي علمه . شامل لكل فن ومطلب في اتساع ذرعه . وعمق تفكيره . ولا ندري ان كان أمثال هؤلاء العيالم تركوا شرح اللزوميات تهيباً للعمل ؟ أو تأثماً من العمل ؟

لا جرم أن في اللزوميات ما ينفعل منه الورع المتزمّت . ويقطب عنه سماعه المسلم المتشدد . أما ديوان (سقط الزند) فلا يكاد يوجد فيه والحمد لله ما يحول بين المرء وقلبه . أو يلقّنه الشك في ربه . ولذا كثر شرّاح السقط . وقل أو فقد من شرح اللزوميات .

***

(١) بلغنا أخيراً أن قد شرح بعضها أبو عبد الله الطليوسي . ويوجد من شرحه هذا بعض أوراق في المكتبة التيمورية بالقاهرة . وبعض قصائد من الشرح المذكور في مكتبة الاستاذ حسن حسني عبد الوهاب في تونس .

وعلى قاعدة (ازهد الناس في العالم وأهله وجيرانه) زهد الجيران والاقارب في وضع شرح على السقط : أولئك الجيران والاقارب الذين عناهم أبو العلاء بقوله في (سقط الزند) :

(أإخواننا بين الفرات وجلّق يدَ الله لا خبرتكم بمحال)

وقام الاباعد يشرحونه . ويتفننون في التعليق عليه . وإيضاح ما خفي منه : فشرحه التبريزي والرازي والخوبي[١] والابيوردي والواحدي والاخسيكتي والخوارزمي[٢] وهؤلاء كلهم مشارقه . وربما كانوا أعاجم أيضاً . وشرحه من المغاربة الاندلسيين القادسي والبطليوسي[٣] ،

ونسأل الجيران عن سبب زهدهم في شرح ديوان جارهم . فيجيبنا الاستاذ عباس العزاوي البغدادي عضو مجمعنا العلمي بأن لديه شرحاً للسقط ألّفه سنة ١٢٧٧ هـ أحد أدباء العراق : وهو ابراهيم فصيح الحيدري البغدادي وسماه (نفح الرند) وقد قرظ هذا الشرح أمين أفندي الجندي مفتي دمشق الشام . وأسرة الحيدري أسرة علم في بغداد كانت . أما اليوم فمن أبرز شخصياتها السياسيين معالي (داود الحيدري) وزير العراق المفوض في لندن .

وأنتم يا علماء القطر الشامي ؟

يجيبنا صاحب كشف الظنون بأن ابن الرازي الحموي (المتوفى سنة ٧٣٧ هـ) له شرح على سقط الزند .

وأنتم يا أقرب الجيران : يا علماء دمشق الماضين الذين قال أبو العلاء في بلدكم : (دمشق عروس الشام الموموقة . وواسطة عقدها المرموقة) ها أنتم أولاء ترون مبلغ عناية أحفادكم دماشقة اليوم بتكريم أبي العلاء في مهرجانه الألفي . أما لكم فيه أثر ؟ أو لديكم عنه خبر ؟

فيجيبنا شيخان دمشقيان متعاصران ومتقاربان في الوفاة : (يوسف البديعي)

---

(١) وشرحه يسمى (التنوير) وهو مطبوع في الهند سنة ١٢٧٦هـ ثم طبع في مصر سنة ١٢٨٦ هـ .

(٢) وشرحه يسمى (ضرام السقط) وهو مطبوع على هامش طبعة التنوير الهندية .

(٣) قال بروكلمن أن شرح البطليوسي قد طبع أيضا .

و (محمد بن نورالدين[1] الدرّا) . يقول لنا الاول : إنه ألف في أخبار أبي العلاء كتاباً سماه (أوج التحري) (وهو الذي طبعه المعهد الافرنسي بدمشق . ووزعت نسخه خلال أيام مهرجانه الألفي) فنقول للبديعي لانريد هذا وانما نريد شرحاً لسقط الزند .

فبهمهم إذ ذاك الشيخ الدرا وسمعنا صوته المهيب من وراء برازخ الاموات قائلا : انني وضعت شرحاً على ديوان سقط لزند الذي نظمه عروس مهرجانكم في مجلد تزيد صفحاته على خمسمائة صفحة . وفرغت من تأليفه سنة أربع وستين بعد الألف للهجرة . فيكون قد مر على ولادته إلى يومكم هذا ثلاثمائة سنة كاملة وبذلك أستحق أن يقام له مهرجان صغير بجانب المهرجان الألفي الكبير . وافتتحت مقدمته بقولي :

(نحمدك يامن شرح صدر من بصّره بنور الهداية . فارتسم في ديوان حضرة الولاء . وطمس على بصيرة من حذره غرور الغواية . فأخلد إلى الارض وأبى العلاء) .

إلى أن قلت في سبب وضعي للشرح المذكور ما خلاصته : إنني كنت مولعاً بديوانيْ (ابن الفارض) و (أبي الطيب) كما كنت حريصاً على أن أتفهم معاني اشعار (أبي العلاء) في ديوانه (سقط الزند) . وقد صعب عليّ تفسير طائفة كبيرة منها . حتى علقت في الكف نسخة من الديوان عليها هوامش . فاستعنت بها في وضع شرحي هذا . معما أنا فيه من الغربة في مدينة جدة حاجاً . وكتبي اللغوية بعضها في بلدي دمشق . وبعضها الآخر في الديار المصرية . وقد ترددت أولا في الشروع حتى رأيت في المنام مولانا الشريف (زيدَ ابنَ محسن[2]) وكان من سعادة تلك الرؤيا تقبيلي لراحته . فألهمت أن أخدم خزانة كتبه بهذا الشرح . ففعلت . وقدمت بين يدي خدمتي قصيدة مدحته بها . وجعلت عدتها أربعة وستين بيتاً بعدد ما زاد على الالف من تاريخ نظمها الذي كان سنة أربع وستين بعد الالف ومطلعها :

(خذ يمين الحمى فثم بدور طلعت في دجا الشعور تُنير)
(كل بدر يُقله غصن بانٍ مثمر بالدلال لدن نضير)
(فقدت قلبها المناطق فيه فهي حيرى على الخصور تدور)

---

(١) وفاة الشيخ الدرا كانت بدمشق سنة ١٠٦٥ هـ ووفاة الشيخ البديعي ببلاد الروم سنة ١٠٧٣ هـ .

(٢) راجع ترجمته في تاريخ المحبي الدمشقي جزء ٢ ص ١٧٦ .

قال : وكنت سميت شرحي (سفَط العقيان والحلى لعروس ديوان أبي العلاء) .

ثم رأيت في المنام أني أستقدح زنداً . واستصبح منه قَنْدا . فعبرت ذلك بأن أسميه (ضوء الفند [1] من سقط الزند) .

قال : وقد خطر لي أن أرتب قصائد الديوان على حروف المعجم بعد أن أدمج فيها الدرعيات وأجعلها ديواناً واحداً — خلافاً لترتيب نسخه المتداولة في أيدي الناس — ثم شرعت في العمل فقلت : قال أبو العلاء احمد بن عبد الله بن سليمان المعري نسبة إلى المعرة وهي قرية من قرى دمشق الشام) إلى آخر ماقال المؤلف.

اقول : جعلُ المؤلف (معرة أبي العلاء أو معرة النعمان) من قرى دمشق أمر مشكل : ويمكن تأويله بأن المعرة كانت في زمن المؤلف من ملحقات حماة . وحماة من أعمال دمشق فتكون المعرة من قرى دمشق . أو أن الناسخ أخطأ : أراد أن يكتب (حلب) فكتب (دمشق) . وهو الاقرب . ومن المستبعد جداً أن يكون (الشيخ الدرا) أراد بمعرة أبي العلاء معرة صيدنايا التي هي من قرى دمشق . نستبعد هذا لانه جهل مطبق . لا يتفق مع فضل المؤلف المحقق .

***

هذه أيها السادة خلاصة ما قاله الشيخ الدرا في مقدمة شرحه . ثم ذكر في خاتمته أنه أتمه في خلال تسعة أشهر . وأنه بيض منه أربعة كراريس ورجع إلى وطنه دمشق . فتوفي في السنة التي بعدها (أي سنة خمس وستين بعد الألف) ودفن في جبانة باب الصغير . وبقيت مسودات الشرح مهملة مدة ثلاثين سنة . حتى قام ابن أخت المؤلف (عبد الحق بن على الدرا) فبيض المسودات بياضاً كاملا . وذلك سنة خمس وتسعين بعد الألف .

والمحبي في تاريخه [2] (خلاصة الاثر) ترجم للشيخ الدرا ترجمة حسنة وأثنى عليه . وقال إنه كان من أنبل أبناء وقته فاضلا شاعراً ممتع المحاضرة قرأ

(١) الفند معناه الشمع الذي يستضاء به وهو لفظ لا تعرفه العرب بهذا المعنى وربما كان سريانيا . وقد كتبت فيه مقالا مسهبا نشرته مجلة المجمع العلمي العربي (مجلد ١٧ ص ٥٧)

(٢) جزء ٤ ص ٢٤٩ .

العربيـة على النجم الغزي وحضر دروس الشيخ عبد الرحمن العمادي فتفوّق وشاع فضله ورحل إلى القاهرة مراراً . وأخذ عن الشيخ سلطان ومن عاصره من العلماء . ومدح من ساداتها الشيخ محمد البكري الصديقي بقصيدتين :

مطلع الاولى :

(خليليّ حطا بالركائب من مصر سقاها وحياها المريع من القطر)

ومطلع الثانية :

(من لقلب من الهوى لا يُفيق وعيون إنسانُهن غريق)

ويظهر أن مخطوطة مكتبتنا هي التي كتبها عبد الحق ابن أخت المؤلف . وربما كانت وحيدة لا ثاني لها : فقد سألت عنها كبير آل الدرا في دمشق فقال إنهم يسمعون بها ولم يرو لها أثراً . وراجعت فهارس دار الكتب الظاهرية . ودار الكتب المصرية فلم أظفر بذكر لها . وقد كتبت على ظهر المخطوطة هذه الجملة : (إن هذا الشرح أحسن شروح الديوان) أما كيف وصلت هذه المخطوطة الينا في طرابلس الشام فيمكن استنتاجه مما يلي :

يوجد في الصفحة الاربعين من المخطوطة هامشة نحوية بخط أديب كبير من أدباء دمشق هو أحمد بن الياس الكردي . وقد وقّع عليها وأرّخ بجانب التوقيع سنة كتابتها بمائة وثلاث وتسعين بعد الألف .

وأحمد الكردي هذا من عيون شعراء الشام في القرن الثاني عشر . ترجم له المرادي في تاريخه (١) وقال : إنه كان يلقب بالارّجاني (٢) الصغير وبالقاموس الماشي . وهو الذي وصف السفينة وصفاً أبدع فيه كل الابداع وذلك يوم ركبها إلى مصر القاهرة يمدح واليها محمد باشا الشهير بالراغب ومطلعها

---

(١) سلك الدرر جزء ١ ص ٨٣ .

(٢) تشبيهاً له بالارجاني الكبير وهو لقب القاضي ناصح الدين أبي بكر أحمد المتوفى سنة ٥٤٦ هـ وربما كان السبب في أنهم شبهوه به إبداعه في وصف السفينة كما أبدع الارجاني في وصف الشمعة في قصيدته التي مطلعها :

(غنّت بأسرار ليـل كاد يخفيها وأطلعت قلبها للناس من فيها)

ثم سرد أوصافها إلى أن قال :

(صفر غـلائلها ، حمر عمـائمها سود ذوائبهـا بيض لياليهـا)

(هذي مُنايَ بلغتها لاوانها فالحمد للافلاك في دورانها)

ومنها :

(النيلَ أيتها السفين فليس لي في فارس أرب ولا أرجانها)

(فتر شفي من ثغر دُمياط المنى لا ظل ذاك الشِعب من بوّانها)

قال المرادي : ونزل أحمد الكردي طرابلس الشام وتزوّج بها وحصل له بعض وظائف . ثم غادرها إلى حلب موافياً صديقه الوزير راغب باشا المذكور حينما جاء والياً . فمات فيها سنة تسع وتسعين ومائة بعد الألف للهجرة . أما كتبه فيظهر أنها بيعت في طرابلس . ومن جملتها مخطوطة الدرا التي قلنا إن عليها هامشة بخط أحمد الكردي فوقعت إلينا منذ ذلك التاريخ .

وخط هذه النسخة جيد واضح . والأبيات وحدها مكتوبة بالحمرة . غير أن فيها طائفة من الأغلاط . لأن ناسخها على مايظهر لم يكن متمكناً من العربية وآدابها .

وقد عارضت النسخة بشرحي (الخويي) و (الخوارزمي) فاذا فيها آثار كثيرة من شرح الخويي المسمى بالتنوير : مما يدل على أن النسخة التي ظفر بها المؤلف الدرّا في جدة كانت هوامشها مستقاة من شرح (الخويي) .

***

وللشيخ الدرا استظهارات أو نقول آراء شخصية لم نجدها لغيره من الشراح مثال ذلك ما قاله في شرح بيت المعري :

(ورائي أمامُ والامام وراءُ إذا أنا لم تكبرني الكبراء)

فهو بعد أن أطال في المعنى المراد من قوله : (ورائي أمام والامام وراء) ونقل جميع ما قاله غيره من الشراح قال : (وثمّ معنى آخر يحتمله التركيب : وهو انه أطلق الوراء والامام وأراد بها مظروفيهما : الموتَ والحياة . مجازاً مرسلاً : إذ أن أمل الانسان جهة أمامه واجله من خلفه . وحقيقة المعنى حينئذ : إذا لم تعرف قدري العظماء فموتي حياة وحياتي موت . قال وهذا الاحتمال أنسب بمواقع كلام أبي العلاء كقوله (فيا موت زر إن الحياة ذميمة) .

وقال بعد أن شرح قول أبي العلاء :

(يود أن ظلام الليل دام له . وزيد فيه سواد القلب والبصر)

ما نصه : (وإذا تأملت فحوى هذا البيت رأيته كالهادم لاركان البيت السابق ما لم يُتكلف له) . والبيت السابق هو قوله :

(ماسرت إلا وطيف منك يصحبني سرّى أمامي وتأويباً على أثري)

وهكذا نرى للمؤلف استظهارات أو مبادهات من رأيه الخاص لم نرها لغيره .

وإذا رأى الشيخ الدرا شيئاً لم يعجبه من شعر شيخ المعرة لا يبالي أن يلزه وينال منه . ففي قول أبي العلاء :

(حلباً يملأ الجفان سديفاً يَرعب الغاليات بالترعيب)

شرح الشيخ الدرا معنى هذا البيت ثم قال : (قماقع ما تحتها طائل)

وبعد أن شرح قوله :

(مستقي الكف من قليب زجاج بغروب اليراع ماء مداد)

قال : ولعمري إن الذوق لينبو عن هذه الاستعارات .

***

ولقد لمحنا من خلال شرح الشيخ الدرا أنه من الشيوخ الذين يسيئون الظن بشيخ المعرة خلافاً للبديعي مؤلف (أوج التحري) فأنه كان يحسن الظنّ به . ولعل المعاصرة بين ابني البلد الواحد الدرا والبديعي هي التي أدت إلى اختلاف وجهة النظر في أبي العلاء ثم انتهت بهما إلى وضع تأليفيهما . على أن الشيخ الدرا ما كان يشير إلى رأيه السيء في أبي العلاء إلا في الندَري : مثال ذلك أنه بعد أن شرح قوله :

(وإني وإن كنت الاخير زمانه لآت بما لم تستطعه الاوائل)

قال : (وقد أفحم بحرف واحد ورد الله يده في فيه) يشير بقوله : (أفحم بحرف واحد) إلى قصة الغلام الذي اعترض أبي العلاء قائلا : آنت الذي قلت : (وإني وإن كنت الخ . . .) قال نعم . قال إن الاوائل وضعوا للهجاء تسعة وعشرين حرفاً فزد أنت عليها حرفاً واحداً إن قدرت . فسكت مفحماً .

وأقام الشيخ الدرا النكير على شيخ المعرة مذ قال في رثاء الفقيه الحنفي أبي حمزة :

(واحْبُواه الاكفان من ورق المصحف كبراً عن أنْفَس الابراد)

فتأفف الشيخ الدرا من هذا الغلو ووصف صاحبه بما لا يرضي أنصاره وربما حكم عليه بأشد مما وصف .

* * *

حقاً إن عقول المفكّرين من البشر لم تقف في الحكم على أحد من البشر موقفها من شيخ المعرة : حتى كانوا فيه طوائف ثلاثاً : طائفة جعلته من أصحاب الميمنة . وطائفة جعلته من أصحاب المشأمة . أما الطائفة الثالثة فهم الحائرون في أمره . المتوقفون عن تقرير مصيره . ويوشك أن يكون أبو العلاء عنى نفسه وهذا الفريق الثالث عندما قال :

(والذي حارت البرية فيه حيوان مستحدث من جماد)

فهو هو الانسان الذي استحدثه خالقه من جماد . وجمع فيه ماتشتت من ذكاء العباد . وأودعه ماشاء من النقائض والاضداد .

* * *

وقد قلت :

أبو العلا لغز غدا حله مُعضِلة عَيَّ بها العالمون
كم بات في أمر الورى حائراً والناس في حيرته (١) حائرون
فقائل : حَيرُته عن هُدى وقائل حيرته عن فُتون
وقائل : خُبل عن خَلوة لا طُعم فيها غير بُلس وتين
وقائل : شكّكه راهب فكان في الشك زوالُ اليقين
وقائل : ضل فلم يهتد لرشده : فهو من الاخسرين
لكنما الجنة مفتاحها في يد ربي لا يد القائلين

المغربي

(١) وأشهر قول له دل به على حيرته — هذا البيت :

(ويمتري النفس إنكار ومعرفة وكل معنى له نفي وإيجاب